إلى الواحات الخارجة

جنة الصحراء الغربية

(وجزيرة الناعمين) فى عرف قدماء المصريين

من الأصقاع الجديرة بالزيارة فى مصر الواحات الغربية تلك التى نجهل عنها كل شىء ولا نذكرها الا فى مقام التشويه أو العقاب أو النفى كأنها شقة من الجحيم . فكرت فى زيارة تلك الناحية المنبوذة لأرى مافيها من رهبة ووحشة فاذا بى أنتقل الى جنة يانعة هواؤها رائق عليل ، وثمرها وافر عميم ، وماؤها دافق غزير ، يحف بكل أولئك كثبان من الرمل الناعم النقى تعلو وراءها نجاد صخرية تمتد إلى الآفاق مما جعل الواحة فى ظنى خير مزار فى الربيع وشطر من الشتاء

أقلنى اليها القطار من مصر الى مواصلة الواحات فى عشر ساعات وهناك انتقلت الى قطار الواحات الصغير الذى سار بنا بين ست ساعات وسبع الى الخارجة فأخذ ذاك القطار يشق طريقه وسط الحقول الزراعية مسافة هى دون خمسة كيلومترات بعدها بدأ يصعد تدريجيا وقد استحال الطمى الراسب على الأرض رمالا وعند الكيلو السادس وقفنا بمحطة : القارة وهى محطة عند اتصال الهضبة الصحراوية بالسهول الفيضية الخصبة . بعدها أوغل القطار فى الصحراء صاعدا وسط واد مجدب ظل يختنق تدريجيا وتقارب القطار جوانبه الصخرية المشرفة حتى اذا قاربنا الكيلو ٤٠ كنا فوق هضبة تنتشر بالحصى وكلما قطعنا ثلاثين كيلومترا كنا نقف فى محطة موحشة يأخذ القطار منها الماء ولا يقطنها من الأهلين نفر . وبعد نصف الهضبة دخلنا شبه وادى فسيح غير محدود الجوانب يسميه القوم « وادى البطيخ » لأنه يغص بكرات الصخر المسودة فى أحجام مختلفة فتبدو وكأنها البطيخ وعند الكيلو ١٤٦ بدأنا نهوى خلال مجرى جاف جوانبه رائعة وكان الهبوط سريعا وغرا حتى أن القاطرة حبست بخارها فكانت تهوى المسافة كلها بقوة انحدار ليس غير ، ولبثنا نتلوى ليات متعاقبة وسط ذاك الصخر المجدب حتى خرجنا الى سهل أدى بنا الى محطة : المحاريق : عند الكيلو ١٦٥ وهى بدء الوهدة التى تتوسطها الواحات ولذلك كنا نبصر على بعد بقاعا تزينها الخضرة فى شبح فاتر . والمحاريق محلة لابأس بمبانيها . كانت قد اتخذت مقرا للنفى الأدارى وكان يرسل اليها المحكوم عليهم من كافة الطبقات حتى علية القوم من المغضوب عليهم وكانوا يتركون أحرارا بعائلاتهم يتجولون الى حدود معينة وراءها يقف الهجانة لكيلا يتجاوز المجرمون الحدود ، والفقير منهم كان يكلف عملا يؤجر عليه خمسة قروش فى اليوم . لكن الحكومة رأت فى النفى أداة للتشفى والانتقام وبخاصة من العمد الذين كانوا يسعون الى نفى من يكرهون . هذا الى المبالغ الطائلة التى تكلفتها الحكومة فى الأنفاق على النفى لذلك قررت الغاءه .

قمنا الى محطة الشركة : وسميت كذلك لأنها كانت المستودع الرئيسى لشركة سكة حديد الواحات وكانت شركة انجليزية سعت بمجهود كبير أن تبيع متاعها للحكومة لأنها خسرت خسائر فادحة ولم يسد الخط شيئا يذكر من نفقاته وتمت الصفقة سنة ١٩٠٩ ودفعت الحكومة ربع مليون جنيه فأيدت بذلك ما يعلمه الأجانب عن سخائنا العميم . وهى لاتزال تخسر فيها كل عام ، اذ من ايرادها البالغ أربعة آلاف جنيه يخص خط الواحات الف جنيه وهذا المبلغ لا يذكر بجانب النفقات . وجل الأيراد وقف على البلح فى شهور الصيف

أخيرا عند الكيلو ١٩٥ دخلنا محطة الواحات الخارجة وقادنى الغلام الى نزل بديع ما كنت أتخيل وجوده فى تلك الناحية النائية هو « فيلا » أنيقة تزينها الأشجار الباسقة وتحوطها كثبان الرمل الناعمة . يديرها مصرى يدعى « مصطفى عمر » ويقوم على خدمة النزلاء والسائحين خير قيام ، ولقد تصفحت سجل الزائرين عنده فكان من بينهم الكثير من الوجهاء ، مصريين وأجانب وبينهم بعض الأمراء . على أنى أسفت لما علمت أن الرجل لا يكاد يتكسب من وراء عمله هذا شيئا ولا تكاد تساعده مصلحة السكة الحديد بشىء حتى ولا بزيادة الدعاية لمنطقة الواحات وتخفيض أجور السفر اليها كى يزيد اقبال السائحين عليها كما كانت الحال فى عهد الشركة

الأنجليزية التى كانت تروج للواحات فكان عدد من يؤمها يفوق المئات سنويا ، أما اليوم فلا نكاد نحن المصريين نسمع عن الأقليم شيئا رغم ما فيه من جاذبية كبيرة

معبد هيبيس بناه دارا الاول « الفارسى » تمجيدا لآمون

قمت أتجول فى المدينة فبدأت بزيارة آثارها التاريخية فالواحة كانت عامرة أيام قدماء المصريين، وابان حكم الرومان ولعل أجل آثارها : معبد هيبيس الذى بناه دارا الأول فى القرر الخامس قبل الميلاد تمجيدا لآمون والمعبد عظيم الامتداد شامخ العمد فاخر البنيان يكاد يحاكى معابد الكرنك

وهناك مدافن رومانية قديمة بها بضع مئين من المقابر أقامها الروم من اللبن فى قباب صغيرة تزينها فى البعض صور القديسين وفى البعض الآخر أشباه البوائك والأعمدة

وسكان الواحات : يمتون بصلة الى المصريين القدماء والى الرومانيين، وقد لاحظت ذلك فى سحنهم المصفرة وتقاطيعهم النحيلة الممطوطة ، ولا يزال للعائلات الرومانية الصرفة هناك بقية فى اثنتين : عائلة الصنديدية ، عائلة الأدارسة . ويمتازون بأدمغتهم المنبطحة من نواصيها . والعجيب أن أهل البلاد اعتنقوا الاسلام جميعا فلا تجد منهم مسيحيا واحدا ويظهر انهم أسلموا مجبرين وكانوا يعتصمون بالصحراء هروبا من أراضى الريف وما أثقلها من ضرائب ابان حكم المماليك ، وهم لا يزالون يحتفظون بالكثير من الشعائر المسيحية رغم أنهم مسلمون ، فمثلا شاهدتهم يعدون سعف النخل الأبيض لصفره فى أشكال عدة احتفالا (بحد الزعف) على نحو ما يفعل اخواننا الأقباط هنا . وبينهم مسجد ذو مئذنة قصيرة كان من قبل كنيسة .

ومن أعجب ما راقنى مبانى القوم ومساكنهم فهى من طابق واحد أو اثنين تبنى باللبن وتتجمع كلها فى كتلة واحدة تشقها سراديب ضيقة سقوفها واطئة لا يستطيع الانسان السير فيها الا منحنيا ولياتها من الأعاجيب ، ولا تتخللها فتحات أو نوافذ قط ، لذلك كانت حالكة الظلام فى رائعة النهار ، ومنها ناحية يسمونها (الهدرة) أرضها صخرية زلقة مغضنة وعرة . وسط ذاك الظلام الدامس زلقت قدماى فيها مرتين . ولقد كانت تلك السراديب وسيلة من وسائل الدفاع ضد غارات البدو والدراويش الذين طالما باغتوا البلاد بغاراتهم ، فكان الواحد من الأهلين يعتصم بتلك المفاوز ليمنع العدو من اختراق حرمة داره ، وفوق ذلك فهى تقيهم وهج الشمس المحرقة صيفا ، ولما رأت مصلحة الصحة اليوم ما تخلفه ذلك الضيق والظلام من الأوساخ وخطر الأمراض ، فتحت خلال الطرق كوى صغيرة فى مسافات متباعدة انارتها اليوم بعض الشىء على انى رغم ذلك كنت أسير فى سراديب كأنها السراديوم أو التيه ظلاما ووحشة ، وكثيرا ما كنت أصطدم بالمارة خصوصا عند مفاجآت الثنيات العديدة لتلك المفاوز وقد استرعى نظرى السقاءون وكلهم من مكفوفى البصر ، يسيرون فى تلك الطرق بخفة عجيبة وعلى ظهورهم قرب الماء ، ولا يخطئون البيوت ولا تزل أقدامهم أبدا . ولقد أضافنى رب بيت من تلك البيوت ، فكنت أتوقع ان آوى الى كوخ صغير أو قاعة وسط تلك المطاوى الحالكة ، ثم دخلنا البيت من كوة صغيرة واشد ما كانت دهشتى عند ما رأيتنى وسط بيت مشيد البناء طلى بالملاط ورصف بالبلاط على نحو ما نقطن هنا فى مصر

والعيون والينابيع : منثورة فى الواحات فى كثرة لا يكاد يحصيها العد حتى قيل أن فى الواحة الخارجة وحدها ثمانمائة عين بين صغير وكبير ، وهذا الماء الغزير يتفجر من طبقة من الخراسان الرملى على عمق يتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ مترا والواحات فى وهدة متوسط ارتفاعها عن سطح البحر يزيد على خمسين مترا وتحف بها النجاد الجيرية والطباشيرية من جميع الجوانب تعلو فى مدرجات أعلاها فوق اربعمائة متر وبخاصة ناحية الغرب وزرع تلك الواحة ٣٠٠ ك م فى الطول وبين ٣٠ و ٨٠ فى العرض . ومن صدوع ذاك الصخر الجيرى تتفجر العيون العديدة ، وغالب العيون كانت مستغلة فى عهد الرومان فكانوا يحفرون حول العين متسعا الى عمق كبير ويضعون منقور الخشب وجذوع النخل فى شكل الأنابيب لحصر الماء ، ثم تطمر الحفرة ، ويستدل القوم على وجود العيون كلما رأوا منخفضا رطبا يبدو نز الماء فيه ، وتجاوره ربوة .

(يتبع)